الباب الأول
حياة الفيلسوف ومؤلفاته وشروحه

ويتضمن فصلين:

الفصل الأول: حياة الفيلسوف

الفصل الثانى: مؤلفاته وشروحه

الفصل الأول
حياة ابن باجة وعصره

ويتضمن العناصر الآتية:

١ - اسمه - لقبه - كنيته.

٢ - نسبه، أسرته، مولده.

٣ - البيئة العامة، أطوار حياته، وفاته، خصومه، ثقافته.

٤ - تلاميذه.

١ - اسمه - لقبه - كنيته:

هو أبو بكر محمد بن يحى المعروف بابن الصائغ وابن باجة التجيبى الأندلسى السرقسطى.

وقد أجمع كل من القفطى[١]، وابن أبى أصيبعة[٢]، وابن خاقان[٣]، والخوانسارى[٤]، وابن خلكان[٥]، والصفدى[٦]، وابن العماد[٧]، والمقرى[٨] على هذا الاسم ولم يخالفهم فى ذلك سوى ابن سعيد[٩] الذى ذكر أن اسمه هو "أبو محمد بن الحسين بن باجة: وربما يكون "الحسين" أحد جدود ابن باجة ولم يهتم المؤرخون بذكره فى نسبه ووقفوا عند ذكر والده فقط.

أما الكنية التى عرف بها ابن باجة وأجمع عليها المؤرخون[١٠] فهى "أبو بكر".

ففيلسوفنا إذن يلقب بابن الصائغ، وابن باجة.

أما أنه يلقب "بابن الصائغ فربما يكون ذلك لأنه قد مارس صناعة الصياغة التى كانت مهنة أسرته ولذلك لقب بابن الصائغ.

وأما أنه يلقب "بابن باجة" فما ذلك إلا لأن كلمة "باجة" كما يقول "ابن خلكان"[١١] هى الفضة بلغة الفرنج بالمغرب ولذلك عرف عند فلاسفة الأسكولاستين "نصارى الأندلس" باسم Avimpace أو كما عرف Averoes بابن رشد[١٢]، ويذكر بعض الباحثين المحدثين أن باجة لقب لوالده[١٣].

وإذا كانت كلمة "باجة" بالأسبانية هى الفضة، فقد علق على ذلك المستشرق الفرنسى "مونك"[١٤] بأنه لو صحت هذه الدعوة لكان من المحتمل أن تكون كلمة "باجة" قد حرفت عن كلمة "باتشا" مثلاً التى هى بدورها حرفت عن كلمة "بلاشان" التى معناها الفضة فى اللغة اللاتينية وهنا تقع الصلة بينها وبين كلمة الصائغ.

٢ - نسبه:

مال بعض المؤرخين لحياة ابن الصائغ أن يطلقوا عليه "ابن لصائغ الأندلسى"[١٥] نسبة إلى بلاد الأندلس[١٦] التى ولد بها وعاش على أرضها.

ومال البعض الآخر إلى نسبته إلى سرقسطة فقالوا "السرقسطى"[١٧] نسبة إلى مسقط رأسه ومهد طفولته ومكان إقامته الأولى.

وقد ذكر كل من "ابن خلكان" و"الصفدى"، و"المقرى" والخوانسارى" أنه ينسب إلى تجيب فقالوا: "أبو بكر محمد بن باجة التجيبى"[١٨].

و"تجيب" كما يقول "ابن خلكان" هى أم عدى وسعد ابن أشرس بن شبيب بن السكون نسب ولدها إليها وهى تجيب بنت ثوبان بن سليم بن مذجح.

وبالرجوع إلى كتب الأنساب يتبين لنا أن "تجيب" هى أم عدى، وأشرس وأن كل من كان من ولد عدى وأشرس قيل له تجيب، وقال الجوهرى هم بنو تجيب بن كندة فجعل تجيب أبًا لهم لا أما ومن التجيبيين بنو صادح التجيبيون الذين كان لهم ملك الأندلس بالمرية أيام ملوك الطوائف[١٩].

أما ابن حزم الأندلسى فيذكر أن تجيب هى أم لهما ولكنه يذكر أن دار تجيب بالأندلس هى سرقسطة ودروقة وقلعة أيوب[٢٠].

ويبدو أن ابن باجة كـان له بهذه المرأة وبولدها صلة نسب أى أنه ينسب إلى اسرة آل تجيب التى حكمت سرقـسطة فى الفترة ما بين (٣٧٩هـ ٩٨٩م: ٤٣١هـ ١٠٣٩م) ومما يؤيد ذلـك أن "ابن دحـيـة"[٢١] يذكـر أن الـسلطان "المعتصم بالله[٢٢] كان ينسب إلى امرأة اسمها تجيب بنت ثوبان بن سليم بن رهاء وهى أم عدى وسعد بن أشرس بن كندة وهى نفس المرأة التى نسب إليها ابن باجـة، وربما كان إهمـال ذكر نسبـه فى سيـرته يرجع إلى تغيـر الظروف السياسية، وإبعاد التجيبيين عن الحكم بعد أن تولت أسرة بنى هود السلطة فى سرقسطة فانصرف المؤرخون عن إظهار نسبه.

٣ - أسرته:

أما عن أسرته التى نشأ بها وتربى فى كنفـها فلا تمدنا المصادر قديمة أو حديثة بمعلومـات وافية بحيث نجد أنه من الصعب الحديـث عن سيرة ذاتية له وكل ما نعرفه عن أسرته أنها كانت تعمل بصناعة الصياغة.

وربما كانت أسرته تتمتع بمكانة مرموقة فى المجتمع الأندلسى (سرقسطة) إذ أننا أثبتنا سابقًا أنه ينحدر إلى سلالة الملوك الذين كان لهم شأن عظيم.

وعلى ذلك فإننا نرجح أن أسرته لم تكن بعـيدة عن بلاط سرقسطة فى ذلك الحين. كما أنها كانت ميسورة الحال لأنها تشتغل بالصياغة. ومعنى ذلك أنه كان من عليه القوم ومن الأسر المرمـوقة. وبما أنه من سلالة "تجيب" فقد كان مختلطًا بأهل البـلاط الذين يمثلون الطبقة الحاكمة وهذا فـسر لنا ما كان عليه "ابن باجة" من اتقان لعلوم الطب والفلسفـة إذ أن التعرف على مضمون هذه العلوم لم يكن شائعًا فى ذلك العصر ولم يكـن ميسرًا إلا داخل القصور والبلاطات، كمـا أن مراجع الفلسفة ومـؤلفاتها لم تكن منتشـرة بين العوام، وكان تداولها مـقصورًا على فئـة خاصة فى المجتمع وهم الذين يمـثلون عليه القوم.

ورغم اهتمام والده بصناعته المربحة (صناعة الصياغة) إلا أنه كان من المحبين للعلم بحيث نجد أنه وجه ولده (أبو بكر) إلى تحصيل العلم والنبوغ فيه بادئًا ذى بدء بتلك العلوم التى كانت منتشرة بين طبقات الناس وهى العلوم الدينية من فقة ولغة، وحديث، وعلوم دين ومما يؤيد ذلك ما ذكره "ابن أبى أصيبعة"(٢٣) من أنه كان متميزًا فى العلوم العربية والأدب حافظًا للقرآن، وما يقوله "السيوطى"(٢٤) من أنه كان عالمًا بالأدب والنحو.

كذلك وجهه والده إلى تحصيل علوم الخواص من فلسفة وطب وفلك وهندسة حيث وجد كل ما يشبع اهتماماته العلمية فى قصور الأمراء وكان قادرًا على تحصيلها". ويعد من الأفاضل فى صناعة الطب. وقال تلميذه "ابن الإمام". كان فى ثقابة الذهن ولطف الغوص على تلك المعانى الجليلة الشريفة (الفلسفة) أعجوبة دهره، ونادرة الفلك فى زمانه فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالمشرق. وأثبت فى الصناعة الذهنية وفى أجزاء العلم الطبيعى ما يدل على حصول هاتين الصناعتين فى نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فعل المستولى على أمرها"(٢٥).

ونلاحظ أن صلة أسرته بالبلاطات الحاكمة كان لها أثرها فيما بعد عقب انتهاء ابن باجة من مرحلة التحصيل فإذا به يواصل اتصاله بالقصور الحاكمة حيث جلسات العلم والمناظرة وقد ورد أنه كان من أولئك العلماء والشعراء الذين عاشوا فى بلاط سرقسطة أيام "بنى هود" فقد عاش مع "ابن جبيرول" الشاعر والفيلسوف المشهور و"أبى الفضل عسداى" الطبيب والموسيقى الذى كان وزير الموتمن بن هود، و"أبوبكر الطرطوشى" صاحب كتاب سراج الملوك، و"الفتح بن خاقان" المؤرخ المعروف، و"أبوبكر بن زهير" صاحب

الموشحات المشهور الذى عمل كطبيب فى بلاط بنى هود وكان معاصراً لابن باجة(٢٦).

ولا شك أن وجوده مع هؤلاء العلماء والأدباء والشعراء فى هذه الفترة كان له أكبر الأثر فى تكوينه العلمى ونضوجه الفكرى كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد عند الحديث عن مصنفاته.

٤ - مولده:

ليس لدينا تحديد دقيق لتاريخ ميلاد ابن باجة أو السنة التى ولد فيها بالضبط، ولم تحدثنا المراجع القديمة التى ترجمت له بشىء عن تاريخ مولده. إلا أن بعض المراجع الحديثة(٢٧) تذكر بالتقريب أنه ولد حيث كان القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى على وشك الانتهاء وأن ذلك كان فى أواخر عصر المرابطين بالأندلس.

على أنه قد يكون فى مقدرونا إذا ما تتبعنا الظروف والأحداث التاريخية من جديد أن نصل إلى تحديد أدق لتاريخ مولده اعتماداً على ما ورد فى المراجع التاريخية القديمة.

فإذا ما عرفنا أن ابن الصائغ قد وزر للأمير "أبى بكر بن إبراهيم اللمتونى الصحراوى" الذى حكم سرقسطة من قبل المرابطين سنة ٥٠٣ هـ - ١١٠٩م كما يقول ابن الخطيب"(٢٨).. استوزر الوزير الحكيم الشهير أبا بكر ابن الصائغ واختصه فتجملت دولته ونبه قدره وأخباره معه شهيرة.

معنى هذا أنه لا يمكن أن يشغل ابن الصائغ هذا المنصب الذى له خطورته إلا وهو على قدر من المعرفة والنضوج العقلى مما يسمح لنا بأن نقدر عمره فى ذلك الوقت بنحو ثلاثين أو عشرين سنة على الأقل.

ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الأسبان ٥١٢هـ - ١١١٨م ورد أنه غادرها إلى إشبيلية ثم إلى شاطبة ثم نزح منها إلى المغرب[٢٩]. وظل هناك فترة من الزمن عاش فيها فى بلاط الأمراء المرابطين فيذكر لنا "القفطى" أنه[٣٠]. وزر لأبى بكر يحى بن تاشفين مدة عشرين سنة.

وتحدثنا المراجع أنه ترك الوزارة وعاش فترة حتى توفى سنة ٥٣٣هـ - ١١٣٨م[٣١]. معنى ذلك أنه توفى فى الستين أو الخمسين من عمره، ومما يرجح هذا التاريخ أن ابن أبى أصيبعة يذكر أنه توفى شابًا، كذلك "الزركلى"[٣٢] يذكر لنا أنه توفى ولم يبلغ بعد مبلغ الكهولة والشباب طبقًا لما يرد فى معاجم اللغة يمكن أن يصل إلى ما بعد الخمسين، ففى "تاج العروس" قال "محمد بن حبيب"[٣٣] زمن الغلومية سبع عشرة سنة منذ أن يولد إلى أن يستكملها ثم زمن الشابية منها إلى أن يستكملها ثم زمن الشبابية منها إلى أن يستكمل إحدى وخمسين سنة ثم هو شيخ إلى أن يموت".

٥ - مكان مولده:

ولد أبو بكر بن الصائغ بمدينة سرقسطة[٣٤] بجزيرة الأندلس، وهى بلدة مشهورة تقع على ضفة نهر "إبره" بأقليم "ارتيط" وهو أحد الأقاليم الكثيرة التى تتكون منها جزيرة الأندلس[٣٥].

وكانت مملكة سرقسطة (الثغر الأعلى)[٣٦] من أعظم المماليك الأندلسية ليس فقط بضخامة رقعتها، ولكن أيضًا بموقعها الدقيق الخطر بين الدول الأسبانية النصرانية وكانت من أقدم الدول الأندلسية المستقلة وأرسخها جذورًا فى الاستقلال بموقعها المنعزل النائى فى شمال شرقى الجزيرة.

وقد كانت سرقسطة فى عهد بنى هود وهى الفترة التى وجد فيها ابن الصائغ وعاش فى بلاطها. كانت مركزًا لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان بنو

هود من حماة العلوم والآداب، واشتهرت سرقسطة فى ذلك الوقت بنوع خاص من الدراسات الفلسفية والرياضية حيث كان ابن الصائغ يعد من اعظم أبنائها خاصة فى ذلك النوع من الدارسات.

كما كانت سرقسطة مثل عواصم الإمارات الأخرى مركزًا لحركة أدبية قوية وقد نبغ بها فى ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء كما مر بنا سابقًا. وقد هيأ لها موقعها أن تقوم بدور حضارى ثقافى بين الدول الأسبانية المجاورة لها.

٦ - البيئة العامة فى نواحيها السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية:

أولاً: الحالة السياسية:

تمتد حياة "ابن الصائغ" فيما بين النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى والنصف الأول من القرن السادس الهجرى - الثانى عشر الميلادى. حيث إنه ولد فى أواخر القرن الخامس الهجرى وتوفى فى أوائل السادس سنة ٥٣٣هـ وهى الفترة التى عاصرت زمن حكم المرابطين للأندلس(٣٧) وتدخلهم السياسى لنصرة الإسلام والدين استجابة لدعوة أمرائها لا سيما بعد سقوط طليطلة فى أيدى القشتالين (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م) كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد، وكيف تحولت حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى حملات غازية واستيلاء المرابطين على مدن الأندلس تباعًا وضمها إلى الإمبراطورية المغربية الكبرى" فيما بين ٤٨٣ هـ - ٥٠٣هـ (١٠٩٠م - ١١٠٨م).

فإذا ما حاولنا استرجاع الحوادث التاريخية فى ذلك الوقت نجد أنه كان لسقوط الخلافة الأموية بقرطبة ٤٢٢هـ، وانحلال الأندلس إلى دويلات للطوائف تمثلت فى ست مناطق رئيسية هى: قرطبة، وطليطلة، وأشبيلية،

وغرناطة، وبلنسية، وسرقسطة، أثر كبير فى ظهور التفكك بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقاليتهم[٣٨]. وليس أدل على ذلك منة أن مملكة سرقسطة وهى المدينة التى ولد فيها فيلسوفنا وكانت من أعظم ممالك الطوائف وأهمها ليس فقط بضخامة رقعتها ولكن أيضًا بموقعها الدقيق الخطر بين الدول النصرانية، ورساخة جذورها فى الاستقلال قد منيت هى الاخرى بإضطرام الفتن وانهيار الخلافة.

فقد استطاع "بنو هود" انتزاع الحكم من أسرة "بنى تجيب"[٣٩] بعد فترة من الحكم استمرت زهاء قرن ونصف وبدأت رئاسة أسرة جديدة هى أسرة بنو هود"[٤٠] وكان أول زعمائها "سليمان بن محمد بن هود" الذى اتخذ من الألقاب السلطانية لقب "المستعين بالله" واستطاع أن يخضع مملكة سرقسطة لحكمه فترة ثمانية أعوام، لكنه قبل وفاته عام ٤٣٨ هـ - ١٠٤٦م قسم مملكته بين أولاده الخمسة، واختص ولده أحمد (المقتدر) بولاية سرقسطة التى كانت عاصمة مملكته، إلا أن الحروب الأهلية التى كان أساسها الطمع سرعان ما قامت بين الإخوة خاصة بين أحمد. وأخيه يوسف (المظفر) إلا أن المقتدر لم يستطع الصمود أمام أخيه فاستعان بملك "نافار" (فرديناند الأول) الذى وجه قواته للقضاء على يوسف بحيث نجد أن المقتدر قد وطد سلطانه بعد ذلك واشتد بأسه واستطاع استرداد القواعد التى كانت تحت رئاسة أخيه[٤١].

وبعد فترة حكم استمرت زهاء خمسة وثلاثين عامًا توفى المقتدر ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م ولكنه قبل وفاته ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه من قبل والده فقسم مملكته بين ولديه فخص يوسف (المؤتمن) بسرقسطة، وخص (المنذر) بطرطوشة ودانية ولا ردة.

وقامت الحروب من جديد بينهما واستعان كل منهما فى تلك الحرب بالنصارى فكان المؤتمن يستعين (بالسيد الكمبيادور) ملك قشتاله، وكان المنذر يستعين بأمير برشلونه، واستمرت تلك الحروب الأهلية حتى وفاة المؤتمن عام ٤٧٨هـ ١٠٨٥م وخلفه ابنه أحمد "المستعين" وما كاد يتقلد مهام منصبه ويباشر أعباء وظيفته حتى وجد نفسه أمام حدث خطير.

فبعد أن استولى ألفونسو السادس على طليطلة ٤٧٨هـ اعتزم انتزاع سرقسطة فسار إليها وحاصرها وحاول المستعين أن يرده عن ذلك ولكنه فشل لقوة الجيوش النصرانية(٤٢) ولم يجد المستعين بدا لدفع هذا الخطر الدامى والخروج من هذا الوضع الميئوس منه سوى طلب العون من الأمير يوسف بن تاشفين المرابطى. الذى أخذ يستنفر جيوشه لدهم هذا الخطر مندفعًا بحماسه العقائدى من أجل نصرة الإسلام(٤٣).

ويذكر المراكشى(٤٤) أن يوسف بن تاشفين عندما بلغه استنجاد المستعين به عبر عن ذلك بقوله "أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى " وعبرت الجيوش المرابطية الأندلس عام ٤٧٩هـ وعندما علم "ألفونسو" بذلك رفع حصاره عن سرقسطة وهرع بقواته إلى الجنوب.

ثم كانت موقعة الزلاقة وهزيمة ألفونسوا الساحقة أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة سنة ٤٧٩هـ ١٠٨٦م فضعف أمر القشتالين والملوك النصارى فترة من الزمن(٤٥).

ولم يمض على هذا النصر الساحق سوى عامين حتى هاجمت القوات القشتالية مدن الأندلس من حديد، وأصبح أمراء الأندلس أمام خطرين: الأول هو زحف الجيوش النصرانية والثانى المخاطر التى باتت تهددهم عبر المضيق من المرابطين خاصة أن يوسف بن تاشفين وقواته قد تذوقوا بدورهم

ترف الأندلس وحضارتها الزاهرة وتقاعصوا عن العودة إلى ديارهم وأعتقدوا أنهم ينصرون الإسلام.

ومع ذلك فقد غلب على أمراء الأندلس ذلك الشعور الدينى فاستنجدوا بالمرابطين ضد نصارى الأندلس وقد عبر "المعتمد بن عباد" عن ذلك بقوله "إنه لمن الأفضل له أن يكون راعى إبل فى الصحراء الأفريقية عن أن يكون راعى البط فى قشتالة"(٤٦).

لكن رغم غلبة هذا الشعور الدينى إلا أنه كان هناك بعض الأمراء من ذوى النفوس الضعيفة الذين اتفقوا مع ألفونسو السادس على نصرته والوقوف بجانبه مقابل مبالغ معينة من المال أو طمعا فى مراكز سياسية تحت سيادته. فقرر يوسف بن تاشفين منازلة هؤلاء الأمراء وتوحيد كلمة الأندلس لمواجهة هذا الخطر المتزايد(٤٧).

وقد بذل المرابطون بحق جهودا جبارة فى سبيل إنقاذ الإسلام واستطاعوا إنقاذ أكثر المدن الأندلسية وآلت أسبانيا كلها إلى سلطان المرابطين وغدت ولاية مغربية بعد أن خضعت سرقسطة لولاء الماربطين سنة ٥٠٢هـ(٤٨) وظلت كذلك حتى سقوطها فى يد ألفونسوا الاول ملك أراجوان ٥١٢هـ ١١١٨م.

ويصف لنا المراكشى سقوط سرقسطة فيقول "وقد كان الإفرنج قبل ذلك بأعوام قريبة العهد خرجوا من الأرض الكبيرة إلى الأندلس فى جموع كثيرة ليس لها حد، ولا يحصى لها عدد إلا الله، انتشروا على ثغور سرقسطة وأثخنوا وقتلوا وسبوا وتغلبوا على مدينة بربشتر عنوة"(٤٩).

وما أن دخلها ألفونسو الأول حتى جعلها عاصمة له ويذكر لنا ابن خلكان أنه بعد أن استولى عليها الفرنج سنة ٥١٢هـ خرج منها جماعة من العلماء ويبدوا أن ابن باجة قد خرج أيضًا فى زمرة هؤلاء العلماء متنقلاً بين

المدن الأندلسية حيث استقر فيما بعد فى المغرب وقضى هناك البقية الباقية من أيامه إلى مماته[٥٠].

وإن كان الفتح بن خاقان[٥١] " يذكر أن ابن باجة قد رحل من سرقسطة قبل سقوطها بيد الأفرنج ولكن دعوى" ابن خاقان" يشوبها بعض الشكوك خاصة إذا ما عرفنا أن ابن الصائغ كان فى ذلك الوقت وزيراً لأبى بكر بن إبراهيم الصحراوى" وكانت له مكانة كبيرة وشأن عظيم فى بلاط ذلك الأمير كما يقول صاحب الإحاطة فلماذا إذن يهاجر ابن باجة وقد حظى بهذا العطف وبتلك المكانة؟؟.

لا شك أن اضطراب الظروف المحيطة به، والتقلبات السياسية كانت من العوامل الأساسية فى نزوح ابن الصائغ إلى المغرب وهو يشير إلى ذلك ضمنًا من خلال رسالة بعث بها إلى أحد تلاميذه "أبو الحسن بن الإمام" يقول له فيها[٥٢]:

«إنى لما اعتزمت على الحركة إلى ما أخافنى من مشرق المعمورة، وهو بلد تارج ومسعى بعيد يشتمل على مقدار من الزمان غير يسير بالإضافة إلى الأعمار الإنسانية وقد تقدمت فى غير هذه فأعلمتك بالسبيل التى أعتقد بسلوكها وهى سبيل قد عبرت أنت أعزك الله بعضها وسيرتى التى عليها مشهورة وأنا متعرض فيها للخطر".

لكن ابن باجة يشير أيضًا إلى أن سلوكه طريق النظر الفلسفى واشتهاره بذلك قد جعله يتعرض لهجوم العوام والفقهاء خاصة وأن النظر الفلسفى فى ذلك الوقت كان يعد من الأمور التى حرم الخوض فيها وكما يقول المقرى[٥٣] "وكل العلوم لها عندهم حظ إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهم حظًا عند خواصهم ولا يتظاهرون بها خوف العامة" لكن ذلك لا يجعلنا نذهب إلى القول بأنه لم ينبغ نابغ فى الفلسفة فى ذلك الوقت.

فقد كان ملوك البربر مع هذا كما يقول "دى بور"[٥٤] لهم ولع بتشرب ثقافة الأمم التى يخضعونها وأوضح مثال على ذلك ما ناله ابن الصائغ من الحظوة لدى أبى بكر بن إبراهيم حاكم سرقسطة وما ناله فى بلاط المرابطين فى المغرب، إلا أنه مع ذلك لم يسلم من كيد الفقهاء ورجال الدين.

وهكذا نجد أن قوة هذه الأسرة البربرية لم تستمر طويلاً بعد وفاة ابن تاشفين ٥٠٠هـ إذ تولى ابنه من بعده تنظيم إمارة الأندلس، ولكنها لم تنعم فى عهده بما نعمت به فى عهد والده وذلك لتعصبه الشديد للدين واستمساكه بمذهب مالك مما جعله آلة بيد الفقهاء. فساد التعصب والإرهاب وكثرت الوشايات مما أدى إلى قيام الثورات التى أنهت حكم المرابطين للأندلس والتى وقعت بدورها فى أيدى النصارى الأسبان وانحصرت رقعة الإسلام فى مملكة غرناطة[٥٥].

ثانيًا: الأحوال الاجتماعية:

ترك يوسف بن تاشفين لابنه على بن يوسف بن تاشفين إمبراطورية كبرى تمتد من بجاية شرقًا إلى السوس الأقصى غربًا. ومن السودان جنوبًا إلى سرقسطة والثغر الأعلى فى الأندلس شمالاً، وكانت هذه الإمبراطورية الضخمة تذخر بفئات مختلفة من مسلمين ونصارى وعرب ويهود وبربر وصقالية وكانت كل فئة لها دينها وأخلاقها وعاداتها وتقاليدها الخاصة بها ولهذا كان المجتمع الأندلسى يمثل المجتمع المختلط بمعنى الكلمة.

وقد وصف "المقرى" جانبًا من هذا الاختلاط الذى كانت تموج به الأندلس من سلالات وأجناس وحضارات وثقافات فكان منهم العرب الخلص وهم الذين كان لثقافتهم ولغتهم أثر فى جعل الأندلس ذات مظهر أدبى وفكرى واحد، وحدته تلك اللغة السامية لغة القرآن، وإلى جانب العرب البربر وما لهم من مقام مرموق فى الفتح يتميزون بحدة الطباع ويتسمون

بالخشونة والبداوة ويضطرمون بالأفكار الرجعية ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة، كما كان هناك الصقالية من سكان البلاد الأصليين والذين أعتنقوا الإسلام.

كذلك حملت غزوات المسلمين فى جنوب فرنسا وغيرها من جزر البحر المتوسط وعودتهم بالسبايا من هذه الحروب وتلك الفتوحات، حملت تلك الغزوات طائفة من الجوارى الحسان كان لهن شأن فى المجتمع الأندلسى بما كان لهن من ثقافة أدبية عالية أثارت كوامن النفس وألهبت قرائح الشعراء والأدباء(٥٦).

وقد اختلط المجتمع الأندلسى بالفعل نتيجة لتزاوج هذه الفئات المختلفة ولم يقتصر التوالد على العرب والبربر وحدهم بل توالد العرب والبربر وسكان أسبانيا الأصليون فكان العرب يتزوجون النصرانيات(٥٧).

لكن رغم هذا الاختلاط فإن المجتمع الأندلسى أصبح يعانى من التفاوت فى الثقافة والمبادئ التى توحد بين هذه الفئات المختلفة(٥٨). كما أن الرخاء الاقتصادى الذى امتازت به الأندلس فى ذلك الوقت نتيجة ازدهار الصناعة والزراعة والتجارة من جهة وتغلب الجوارى على الحياة الاجتماعية فى الدور والقصور من جهة أخرى جعل الأمراء المرابطين ينغمسون فى ذلك النزف وتلك الرفاهية والمنعة على مر الأيام مما أضعف مكانتهم السياسية وجعل النصارى يتحينون الفرص للقضاء عليهم واسترجاع الأندلس(٥٩) كما أنه أضاع هيبتهم وشجاعتهم التى اتسموا بها لدى العوام نتيجة انغماسهم فى الترف من ناحية ومعاملتهم القاسية للناس والتى كانت تحمل فى طياتها الكثير من الكبرياء والعجرفة من ناحية آخرى.

ومع ذلك فإنه يمكننا القول بأن بلاط سرقسطة كان يعد من أفخم بلاطات أمراء ذلك العصر لأن بنى هود كانوا من أغنى ملوك عصرهم وقد

استطاعوا بهـذا الغنى أن يجعلوا من الأندلس مركزًا لإشعـاع الحضارة والعلم كما سنوضحه فيما بعد.

ولا شك أن هذا التفـاوت الاجتماعى الذى اتسم به المجـتمع الأندلسى قد أحيا الآداب والعلوم من جهة وأضعف السـياسة والأخلاق من جهة أخرى وكان لهذا الجو الاجتماعى بمتناقضاته أثرًا فى نفس ابن باجة وفى فكره.

فقد كان من آثاره فى نفسه أنه اجتمع فيه إحساس بوحشة ووحدة كبيرة نتجت من الظروف القاسـية التى تعرض لها فى حياته الخـاصة والتى جعلت الاستـقرار الفكرى الأمـل المنشود الذى كـانت تهفوا إلـيه نفسـه، وبدا ذلك واضحًـا فى كتاباته الفلسـفية التى اتسـمت بالغموض، وجـفوة اللفظ، وإن كانت رقة طبعه وهدوء نفسه يغلبـان عليه فى بعض الأحيان كما يبدو لنا من خلال كتاباتـه الشعرية فى الغزل والعشق والمدح، وفى موشـحاته التى تفيض شجى.

كما أن هذا المجتمع المتفاوت كان له أثره فى تفكير ابن الصائغ الفلسفى فقد اتخـذه مادة للدراسة والتحليل وتجلى لنا ذلك واضحًـا فى فكره السياسى وفكرته عن المدينة الفـاضلة تلك المدينة المثلى التى كان يسـعى لتحـقيقـها فى عالم الواقع.

ثالثًا: الأحوال الدينية:

انتشرت الدعوة الإسلامية الجديدة التى جاء بها الإسلام عام ٩٢هـ على يد طارق بن زياد والـتى اهتم بنشـرها فى جـزيـرة الأندلس، وأخـذت هذه الدعوة تشـق طريقها فى هدوء بيـن الأسبان النصـارى فى ذلك الوقت ورغم دخول الكـثيرين مـنهم فى الدين الحنيف إلا أن بعضـهم أيضًا قـد بقى على نصرانيـته الوقت الطويل، وأقامت الدولة الأمـوية بالأندلس خلافة إسلامـية

مستقلة عن الدولة العباسية فى المشرق وكان الخليفية الأموى يتولى شئون الجماعة الإسلامية روحانيًا إلى جانب توليه منصبه كحاكم سياسيًا[٦٠].

وكان المذهب المالكى هو أكثر المذاهب الإسلامية انتشارًا فى ذلك الوقت خاصة بعد القضاء على مذهب "الأوزاعى" قبل انتهاء المائة الثانية للهجرة. وتمكن الفقه المالكى من السيطرة على القضاء والفتيا والعبادات والاحوال الشخصية وأصبح لفقهاء المالكية مكانة عظمى فى دولة الأندلس.

وبالرغم من انتشار المذهب المالكى بهذه الصورة إلا أن الفقه الشافعى والفقة الظاهرى قد انتشر أيضًا فى الأندلس[٦١].

كذلك كان الحال فى دولة المرابطين بالمغرب فقد كان الإسلام السنى على مذهب الإمام مالك هو المذهب السائد فى عهدهم وكان للفقهاء مكانة مرموقة لدى حكامهم وقد بلغ التعصب لمذهب الإمام مالك مبلغه وليس أدل على ذلك سوى ما يرويه لنا "الخشنى"[٦٢] من أن مغريبا جمعه الطريق بالحجاز برجل من أهل بغداد وكان إن ذاك يرى رأى مالك. فقال البغدادى: روى عن النبى ﷺ كذا، فقال له المغربى: فيما أذكر مالك لا يرى ذلك، فقال البغدادى: شاهت وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبى بقول مالك.

ورواية الخشنى إن دلت على شىء فإنما تدل على ما وصلت إليه الدراسات الفقهية فى ذلك العصر وما كان لفقهاء المالكية من مكانه مرموقة لدى حكامها.

يقول "المراكشى"[٦٣] فى حديثه عن ولاية على بن يوسف بن تاشفين" . . كان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاروة الفقهاء، فكان إذا ولى أحد من قضاته كان فيما يعهد إليه لا يقطع أمرا ولا يبت حكومة فى

صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغًا عظيمًا. . وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم" .

ولم يهتم فقهاء المرابطين بدراسة الحديث، فقد انصرفوا عنه وكانوا لا يرجعون إلى الأصل إلا لكى يستنبطوا منها الأحكام ويتخذوها مادة للدراسة واكتفوا بتلك الأحاديث المجموعة فى كتب الفروع وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ ويعلق على ذلك المستشرق "ليفى بروفنسال"(٦٤) فيقول:

«وكان من أثر هجر الفقهاء لدراسة الحديث وما يتصل به من مصادر أن ألغى علم أصول الفقه الذى يستنبط بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة. وأدى الاعتماد على الفروع التى تتضمنها كتب المذهب إلى تجريد الدراسة من روح الكشف وانصرف القوم عن النظر والاجتهاد" .

رابعًا: الأحوال الفكرية:

كانت الأندلس تحت حكم المنتصر بالله (الحكم الثانى ٣٥٠ - ٣٦٦هـ - (٩٦١م - ٩٧٦م) سوقًا عظيمة تفد إليها الآثار الأدبية من كل قطر وكان يبعث فى طلب الكتب من ديار المشرق كبغداد، ومصر وقد أدى ذلك إلى اتجاه الناس فى أيامه إلى العناية بعلوم الأوائل وتعلم مذاهبهم(٦٥).

يقول ابن أبى أصيبعة(٦٦) عند حديثه عن ابن الصائغ" . . ، فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالمشرق" .

وإذا كان "يوسف بن تاشفين" عند توليه تدبير شئون الأندلس قد أبدى امتعاضه عند زيارته لأشبيلية من مظاهر الترف الأندلسى. فإنه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم فيها إلى الوفود إليه وفى ذلك

يقول المراكشى[٦٧]: " . . فانقطع إلى أميـر المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حـتى اشتبهت حضـرته حضرة بنى العبـاس فى صدر دولتهم، واجتمع له من أعيـان الكتاب ورؤساء البلاغة ما لم يتفق اجتـماعه فى عصر من الأعصار "[٦٨].

وهكذا تبـدل بلاط يـوسف بن تاشـفـين من بلاط يتـسم بالخـشـونة والبساطة، إلى بلاط مـتألق متحضر مثلمـا كانت بلاطات أمراء الطوائف فى الأندلس خاصة بلاط سرقسطة فى عهد بنى هود كـما ذكرنا سابقًا فقد كانت مركزًا للعلوم الرياضـية والفلسفية، كمـا كانت مركزًا لحركة أدبيـة قوية. وقد لعبـت دورًا كبيـرا ًفى التبـادل الثقـافى والحضـارى بين الأندلس وبين الدول الأسبانية المجاورة. وقد هيأ لها موقـعها بين الممالك الأسبانية أن تضطلع بهذا الدور الحضـارى الخطير. وكـان فرسـان النصارى يجـدون فى بلاط بنى هود الباذخ ساحة رحبة وكانت مركزًا لأشعار الفروسية والشعر الغنائى والموشحات الأندلسية[٦٩].

ورغم هذه النهـضـة الحضـارية التى كـانت تذخر بـها الأندلس، فـإن الفلسفة كانت علمـا ممقوتًا بهذه البلاد خاصة عند العـوام، ولم تكن معروفة سوى فى القصور والبلاطات الحاكمـة. وبينما كانت كافة العلوم لها حظ من الاهتمام. كان الحكام والفقهاء يضيقون الخناق على الفلسفة ورجالها فالمشتغل بالفلسفـة لا يستطيع أن يظهـر ذلك وكانت تخفى تـصانيفـه وفى ذلك يقول المقرى[٧٠]:

«فكلما قيل فلان يقـرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطـلقت عليه العامة اسم زنديق وقيـدت عليه أنفاسـه وكثيرًا مـا يأمر ملوكهم بإحـراق كتب هذا الشأن إن وجدت" .

ولم يكن هذا الموقف المتزمت من جانب المرابطين تجاه الفلسفة فحسب،

وإنما تعداه أيضًا إلى علم الكلام الإسلامى وهو العلم الذى يدرس العقيدة فقد حرم تحت تأثير الفقهاء الاشتغال به وتوعدوا بالعقاب الشديد كل من حاول الخوض فيه أو من وجدوا عنده كتب من هذا القبيل، وكانوا يكفرون كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام فقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح هذا العلم وأنه بدعه فى الدين.

ولما دخلت كتب "الغزالى" بلاد المغرب أثارت موجة من الغضب عند فقهاء المرابطين إذ أن "الغزالى" قد فضح فيها نزعات الفقهاء فى دراستهم الفقهية وحرصهم على الدنيا وطمعهم فى الحصول على المناصب الرفيعة، وقد كان نقده لهم منصبًا على أساس أن العلم ليس حرفة كالحرف الأخرى أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل، وإنما هو عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى(٧١)، وقد كان للغزالى رأى فيهم فقال "إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون"(٧٢).

ومن هنا نجد الفقهاء فى المغرب قد حملوا عليه حملة شعواء واتخذوا قرارًا أملوه على السلطان " على بن يوسف بن تاشفين" يقضى بإحراق هذه الكتب المنسوبة إلى الضلال بزعمهم وأحرقت كتب الغزالى وهم لا يعرفون ما فيها، إلا أنهم ظنوا أن فيها آراء إلحادية(٧٣).

كذلك امتد هذا التعنت لعلم المنطق لأنه من علوم الفلسفة يقول ابن طملوس(٧٤): "رأيت صناعة المنطق مرفوضة عندهم مطروحة لديهم، ولا يحظى بها ولا يلتفت إليها وزيادة على هذا فإن أهل زماننا ينفرون منها ويرمون العالم بها بالبدعة والزندقة".

وإذا كانت الطبقة الحاكمة والفقهاء قد نقمت على الفلسفة والفلاسفة فإن الأدباء والشعراء قد نبذوا هذا العلم أيضًا ومن يشتغل به يقول ابن جبير(٧٥):

قـد ظهـرت فى عـصـرنا فـرقـة ظهـورها شـؤم على العـصـر

لا تقـتـدى فى الدين إلا بمـا سن ابـن سـينـا وأبو نـصـر

وليس أدل عندنا سـوى وصف "ابن طفـيل"(٧٦) لحـال الفلسفـة فى الأندلس ومـا وصلت إليه فى ذلك الوقت حـيث نجده يقـول "إن هذا العلم (الفلسفة) أندر من الكبريت الأحمر لا سيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه لا يظفر باليسـير منه إلا الفرد ومن ظفر بشىء منه لم يـكلم الناس إلا رمزًا فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه".

لكن نظرًا لاهتـمـام الخلفـاء والأمـراء الأندلسـيـين بالطب والرياضـة والفلك، إذ أنهم كانوا يحتـاجون إليها كثـيرًا فقد نشأت الفلسفـة فى أحضان الطب والتنجيم إذ أن الاشـتغال بالطب والتـنجيم يسلمان إلى الفلسـفة، لأن الطب يحتاج إلى معرفة النباتات والعقـاقير ومتى سار الطبيب فى ذلك احتاج إلى المنطق لمعرفة الأقيسة والاستنتاجات الصحيحة فى معالجة الأمراض، ومتى علم ذلك فـقد عرف جـالينوس وأفلاطون وأرسطوطاليـس فاتصل بالفلسـفة اليونانية.

كذلك من اشتغل بالنجوم اتصل ببطليمـوس، وإقليدس، وفيثاغورث. ولذلك نرى الفلاسفة الأندلسيين الأولين أطبـاء مثل "الكرمانى"، وأبو جعفر بن خميس"، وفيلسوفنا "أبو بكر بن الصـائغ" أو منجمين مثل "أبو القاسم مسلمة المجريطى"، "والزهراوى"(٧٧).

أما الدراسات الفلكية والجغرافية فقد ازدهرت فى الأندلس منذ منتصف القرن الـعاشر وسـار علماء الأندلس ومـفكريها على الأسـس الرئيسيـة التى وضعها أبو معـشر الفلكى البغدادى(٧٨) وكان لفلاسفة المسلمين فى الأندلس دور هام فى محـاربة نظام (البطروجى) وتبـسيط نظام بطليـموس ليـتلاءم مع نظرية أرسطو طاليس، تقول المستشرقة" زيغرد هونكة"(٧٩).

«إنه حتى غضون القرن الثانى عشر للميلاد كان هناك شك ونقد لأساس صورة العالم حسب نظرية بطليموس فقامت فى الشرق وخاصة فى أسبانيا ومراكش أصوات تشك فى نظريات بطليموس متأثرة بأفكار أرسطو، وانطلاقًا من ابن باجة السرقسطى توارث المفكرون مدة ثلاثة أجيال روح النقد والرغبة فى البحث عن أسباب طبيعية تشرح ظواهر السماء بشكل إقناعى".

ورغم ظهور هذا التيار الفلسفى العميق إلا أن القوة التى كان الفقهاء قد جعلوها لأنفسهم فى المجتمع الأندلسى كان لها تأثير كبير على انكماش الثقافة الفلسفية، فقد كان الحديث فى الشئون الفلسفية محصوراً فى مجالس خاصة متداولاً بين أفراد معدودين وبتشجيع من بعض الأمراء الذين وجدوا فى الفلسفة علمًا جديداً استرعى انتباههم فقربوا منهم الفلاسفة الذين ظهروا فى عهدهم على نحو ما نجد الأمير "أبو بكر بن إبراهيم" يتخذ من ابن باجة جليسًا ووزيراً وقد كان ابن باجه من أكبر فلاسفة عصره كما اشتهر عنه ذلك ومع ذلك فلم يسلم الفلاسفة من كيد الفقهاء وثورة العوام. ورغم ما ناله ابن الصائغ من حظوة فى بلاط سرقسطة وبلاط المرابطين فقد مات مسمومًا بكيد بعض أعدائه وليس مستبعداً أن يكون اشتهار اشتغاله بالفلسفة هو الذى اورده حتفه.

وها هو ذا ابن رشد وقد شغل مناصب القضاء الرفيعة يثور عليه الجمهور وبخاصة الفقهاء ويطالبون بمحاكمته ويطلبون إعدامه صلبًا لولا رفقة المنصور. ويشهد على ذلك أيضًا تهيب ابن رشد عندما سأله الخليفة فى اجتماعه الأول به عن رأى أرسطو فى نشأة الكون وكيف أنه لم يجرؤ على الرد إلا عندما أخذ الخليفة الكلام فى الموضوع(٨٠).

ومن هذا القبيل أيضًا ما لجأ إليه بعض الفلاسفة من استخدام الرواية فى منهج مباحثهم فإبن طفيل يؤثر فى بسط فلسفته الأسلوب القصصى ويعبر عنها تعبيرًا فلسفيًا رمزيًا كى يتفادى غضب المحافظين.

ورغم ضيق المرابطين بكل نظر فلسفى تحت تأثير الفقهاء إلا أنهم مع ذلك كانوا يشجعون العلم ويستقدمون العلماء من مختلف البلدان ويغدقون عليهم الأموال فازدهرت العلوم ونبغ الكثير من العلماء "كمسلمة المجريطى" وتلاميذه: الزهراوى والكرمانى، وابن المسح، وابن البيطار وقد كانوا علماء رياضيين وفلكيين وأطباء ويضيف صاعد الأندلسى إلى هؤلاء "ابن حزم الظاهرى". و"أبو الفضل بن حسداى الطبيب"(٨١).

فى هذا الجو العلمى الفكرى نشأ ابن باجة نشأته الأولى. وتربى فى ظل تلك الدولة الفتية وتمتع بعطفها وتقلب فى مراكز الوزارة فتيسر له ما لم يتيسر لسواه من بسطة العيش والجاه. وسهولة الإطلاع على كتب المؤلفين. ومصنفات المشارقة فى مختلف الفنون والعلوم وغير المشارقة من فلاسفة اليونان وغيرهم وفى هذا المحيط قضى حياته القصيرة فى خدمة العلم والفلسفة.

وعلى الرغم من عطف دولة المرابطين عليه واستئثار حاكم سرقسطة له بالرعاية والإكبار إلا أن عدم الاستقرار السياسى، وكثرة الحروب والفتن الأهلية واختلاف نوعية المجتمع الأندلسى والجو العلمى الفكرى المقيد بأهل الحديث والفقهاء والمتشددين، كان له أكبر الأثر فى هجرته وانتقاله من مدينة أندلسية إلى مدينة مغربية طمعًا فى الاستقرار والهدوء كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد.

ومع ذلك كما يقول "دى بور"(٨٢) فقد عاش فى وحدة عقلية ولم يجد أنيسًا يشاطره آراءه ولم تكن حياته على قصرها حياة سعيدة، وكثيرًا ما

تمنى الموت ليجد فيه الراحة الأخيرة. وما وصل إلينا من كتبه يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن يأنس إلى عصره ولا بيئته.

٧ - أطوار حياته:

أ - طور النشأة الأولى والتحصيل:

نشأ ابن الصائغ كما اتضح لنا من قبل فى أحضان أسرة تتمتع بمكانة مرموقة فى المجتمع الأندلسى وبالذات فى سرقسطة لما كان لبنو تجيب من أمجاد سياسية فى بلاط تلك الإمارة، ولها من اليسر المالى ورغد العيش ما جعله ينشأ نشأته الأولى فى هدوء واستقرار.

فى هذه المرحلة نجده يدرس العلوم على اختلافها وينكب على تحصيلها ويحاول أن يأخذ العلم والحكمة عن حكماء عصره ويحيط بعلوم العصر إحاطة جيدة وتحدثنا شتى المراجع على أنه درس العلوم الدينية من فقه، ولغة، وأصول دين، وحديث. كما أنه درس العلوم العربية من نحو وصرف وأدب وشعر، وكان ذلك على يد جماعة من شيوخها فألم بها إلمامًا شاملاً ونبغ فيها نبوغًا يدل على عمق فهمه. يقول عنه ابن أبى أصيبعة(٨٣) "كان متميزًا فى العلوم الدينية والأدب حافظًا للقرآن" ويقول القفطى(٨٤) "عالم بعلوم الأوائل وهو فى الآداب فاضل، لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره فى مصره".

ويقول السيوطى(٨٥) "ذكره أبو حبان فى النضار فقال كان عالمًا بالأدب والنحو ولم يقف ابن باجة على العلوم الدينية والعربية فحسب ولكنه شارك فى دراسة العلوم العقلية على اختلافها وعلوم الأوائل من فلسفة وطب وكيمياء ورياضة وفلك وعلم طبيعى يقول ابن أبى أصيبعة(٨٦). . ويعد من الأفاضل فى صناعة الطب وأثبت فى الصناعة الذهنية وفى أجزاء العلم

الطبيعى ما يدل على حصول هاتين الصناعتين فى نفسه صورة ينطق عنها ويفصل ويركب فيها فعل المستولى على أمرها" .

ويقول السيوطى[٨٧] . . نظر فى كلام الحكماء فكان يشبه ابن سينا" وفى ترجمة الخوانسارى[٨٨] له نجده يقول "ومنهم الشيخ البارع اللغوى الحكيم" .

وهكذا درس ابن باجة مختلف هذه العلوم وانتفع بحكمة المشارقة من العرب ومؤلفاتهم التى انتشرت فى الأندلس منذ ولاية الحكم الثانى كما يقول "ابن الإمام" تلميذ "ابن الصائغ" فبرع فيها وفاق أهل عصره" لم يبلغ درجته أحد من أهل عصرنا فى الحكمة وله تصانيف فى الرياضيات والمنطق والهندسة فاق فيها المتقدمين" .

كذلك درس ابن الصائغ "ألوان الفنون المختلفة التى كانت منتشرة فدرس الموسيقى والألحان والموشحات. يقول ابن سعيد عنه إنه[٨٩] "فيلسوف الأندلس وإمامها فى الألحان" .

ويقول ابن خلدون عنه إنه[٩٠] " . . صاحب التلاحين المعروفة" أما "الشفندى"[٩١] فيقول فى رسالته المحفوظة فى نفح الطيب "للمقرى" "وهل لكم فى علم اللحون والفلسفة كابن باجة" .

ب - توليه الوزراة فى سرقسطة:

ثم تحدثنا المراجع بعد ذلك عن أن ابن الصائغ قد وصل إلى منزلة عالية فى مجتمعه (سرقسطة) فى ذلك الوقت، فرغم تشدد الحكام المرابطين كما مر بنا ومحارتهم أى نظر فلسفى حر وأحكامهم المسرفة فى أخذ النصوص المقدسة على ظاهر حرفيتها إلا أنه كان هناك من هؤلاء الحكام من يرون أنه لا بد وأن ينهلوا من موارد المعرفة وأن يلتمسوا فى الثقافة تغذية لنفوسهم،

وترقية لعقولهم ولم يكن ذلك ممكنا إلا بتقريب الصفوة الممتازة من أهل ذلك العصر الذين ذاع صيتهم وعلت منزلتهم العلمية وكان ابن باجة من زمرة هؤلاء الصفوة وكان كما وصفه معاصره الصغير (ابن طفيل)[٩٢] "أثقبهم ذهنا وأصحهم نظرًا وأصدقهم رؤية" ومن هنا نرى الأمير "أبو بكر بن إبراهيم المسوفى الصحراوى" عندما تولى حكم سرقسطة (٥٠٣هـ) يتخذ من ابن باجة جليسًا" ووزيرًا له.

يقول الأمير ركن الدين بيبرس فى مؤلفه "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة"[٩٣] إن ابن الصائغ وزر لأبى بكر الصحراوى صاحب سرقسطة وأن سيرته كانت حسنة فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال.

ويذكر لنا الشيخ الناصرى[٩٤] خبر توليه الوزارة فى سرقسطة فيقول "ولما مات محمد بن الحاج بعدما تخلص منه القائد محمد بن عائشة بحيلة أعملها. اتصل خبر الوقعة بأمير المسلمين بأسفه موت أبى عبد الله بن الحاج وولى مكانه أبا بكر بن إبراهيم بن تيفوليت وهو ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبى بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ وكان عاملاً على مرسية"[٩٥].

وفى عهد وزاراته يذكر لنا صاحب الإحاطة "أنه تجملت دولته ونبه قدره وكانت له مكانة عظيمة فى بلاط ذلك الأمير ومما يؤيد ذلك ما يرويه لنا من أن ابن الصائغ غاب يومًا عن مجلس الأمير، ثم بكر من الغد فلما دخل قال له أين غبت يا حكيم؟؟ فقال يا مولاى أصابتنى سوداء فاغتممت فأشار إلى الفتى الذى يقف على رأسه وخاطبه بلسان أعجمية فأحضره طبقًا مملوءًا مثاقيل محشمة وعليها نوادير ياسمين مذبغة قال ابن باجة "يامولاى لم يعرف جالينوس من هذا الطب.. فضحك وهكذا كان ابن الصائغ فى ظل وزارته يتمتع بالعطف والرعاية من جانب الأمير أبو بكر رغم ما كان له من ميول وآراء فلسفية ظهرت فى لقاءاته ومناظراته فى بلاط سرقسطة. ولكن الأمر لم

يدم على هذا الحال. إذ توفى الأمير أبو بكر ٥١٠هـ بعد أن ضاق ذرعًا بطاغية الروم على حد قول "ابن الخطيب"(٩٦) فحزن ابن الصائغ على وفاة الأمير ورثاه بأبيات اشتهرت عنه منها:

سلام والمام ووسمى مزنه على الجدث النائى الذى لا أزوره
أحق أبو بكر تقضى فلا ترى ترد جماهير الوفود ممتورة
لئن أنست تلك القبور بلحده لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ثم سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى ٥١٢هـ. ولم يكن أمام ابن الصائغ سوى الهجرة فهاجر مع غيره من العلماء.

جـ - هجرته من الأندلس إلى المغرب:

سبق لنا عند حديثنا عن الأحوال السياسية أن ذكرنا أسباب هجرة ابن باجة من الأندلس ونزوحه إلى بلاد المغرب ولكننا نضيف أيضًا أنه ربما يكون قد هوجم بشدة من جانب الفقهاء فضاق ذرعًا بهجومهم وتضييقهم عليه. وكان فى ذلك الوقت قد لفت إليه الأنظار بمكانته العلمية والفلسفية فقرر أن يغادر الأندلس إلى غيرها ليفر من موت محقق وليجد الراحة والطمأنينة التى كان يسعى إليها.

ومما يؤكد ذلك ما يذكره لنا المقرى(٩٧) عن حال الفلسفة فى ذلك العصر فيقول: ". . فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يرفع أمره للسلطان أو يقلته السلطان تقربًا لقلوب العامة وكثيرًا ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إن وجدت".

ترك ابن باجة سرقسطة إذن بعد أن سقطت فى أيدى النصارى ٥١٢هـ، فذهب إلى جنوب أسبانيا ومر ببلنسية، واستقر بعض الوقت فى المرية

وغرناطة حيث كان يحضر الندوات الأدبية والمناظرات الشعرية والتى كانت تقام فى بلاط غرناطة ويحضرها ذوى الهمم العالية[٩٨].

وفى جامع غرناطة يذكر المقرى[٩٩] أنه جرت له حادثة تدل على اعتزازه وفخره وعلو همته فى العلم والدنيا يقول ". . دخل أبو بكر المعروف بابن باجة جامع غرناطة وبه نحوى حوله شباب يقرأون فنظروا إليه وقالوا مستهزئين به: ما يحمل الفقيه؟ وما يحسن من علوم؟ وما يقول؟؟ فقال لهم: أحمل اثنى عشر ألف دينار، وها هى تحت أبطى، وأخرج لهم اثنتى عشرة ياقوته كل واحدة منها بألف دينار - وأما الذى أحسنه فاثنى عشر عامًا أدونها علم العربية الذى تبحثون فيه - وأما الذى أقوله فأنتم كذا. . . وجعل يسبهم" .

انتقل ابن الصائغ بعد ذلك من غرناطة إلى أشبيلية فلم يجد فى واحدة، من تلك الإمارات الهدوء والاستقرار الذى كان ينشده. فقد توالى سقوط تلك الإمارات واحدة تلو الأخرى فى أيدى النصارى فرحل إلى جيان مبتعدًا عن السياسة متفرغًا للدراسة والتفلسف ووضع هناك بعض مؤلفاته فى المنطق وانتهى من أحداها كما يذكر "مونك"[١٠٠] فى ٤ شوال سنة ٥١٢هـ.

ثم رحل إلى بلاد المغرب. ولما وصل شاطبة وكان حاكمها فى ذلك الوقت الأمير "أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين" اعتقله كما يذكر الفتح ابن خاقان[١٠١] بسبب زندقته وإلحاده فى الدين ولكن رواية ابن خاقان مشكوك فيها إذ أنه كان من ألد أعدائه.

ويذكر أن حبسه كان مقدرًا له أن يطول لولا تدخل والد الفيلسوف ابن رشد فقد سعى إلى تقصير مدته على ما ذكر (رينان) عن مؤلف عربى مجهول[١٠٢].

لكن القفطى[١٠٣] يؤكد لنا أنه نال حظوة فى بلاط المرابطين بأفريقيا فيقول "استوزره أبو بكر يحى بن تاشفين مدةعشرين سنة" ويؤكد ذلك أيضًا الأمير "ركن الدين بيبرس"[١٠٤] فيقول " . .ووزر أيضًا ليحى بن يوسف بن تاشفين عشرون سنة بالمغرب" كما يؤكدها معاصره الفتح بن خاقان[١٠٥].

ومن المؤكد أن ابن باجة قد ظل فى بلاط المرابطين يتمتع بالعطف والرعاية مما أوغر صدور الكارهين له فقرروا التخلص منه بالسم.

٨ - وفاته:

توفى ابن باجة شابًا على نحو ما يذكر ابن أبى أصيبعة " وكانت وفاته فى رمضان ٥٣٣هـ ١١٣٨م حيث يتفق كل من "القفطى" و"ابن خلكان"، و"ابن العماد" و"الخوانسارى" على ذكر ذلك التاريخ، ولم يخالفهم سوى "المقرى" الذى ذكر أنه توفى فى رمضان ٥٢٣ وقيل سنة ٥٢٥ وتابعه بعض المؤلفين المحدثين[١٠٦].

والواقع أننا لا نرجح رواية "المقرى" ومن تابعه من المؤرخين فى أنه توفى ٥٢٣هـ، ودليلنا فى ذلك أن تلميذ ابن الصائغ (وهو ابن الإمام)[١٠٧] يؤكد ذلك التاريخ ويذكر أنه قرأ كتاب النفس لابن الصائغ وفرغ من قراءاته فى الخامس عشر من رمضان ٥٣٠هـ ١١٣٥م أى قبل موت ابن الصائغ بثلاث سنوات، وهذا التاريخ يحكم قطعًا بأنه توفى ٥٣٣هـ لا ٥٢٥ كما زعم البعض.

وقدر له أن يموت مسمومًا بفعل بعض الحاسدين له خاصة "ابن زهر" الطبيب الذى قرر الخلاص منه بالسم[١٠٨] وكان ابن الصائغ على علم بما يضمره له من حقد وكراهية فقال فيه الشعر[١٠٩]:

يا ملك الموت وابن زهر جاوزتما الحد فى النهاية

ترفـــعا بالورى قلـيلاً فى واحد منـكما كفاية

ويقول ابن خلكان "إنه عندما حضرته الوفاة كان ينشد:

أقول لنفسى حين قابـلها الردى فزاغــت منه يســرى إلى يمنى

قفى تحملى بعض الذى تكرهينه فقد طالما اعتدت الفرار إلى هنا

مكان وفاته:

وقد توفـى ابن الصائغ ببـاذنجان بمدينة فـاس بالمغرب ودفن بهـا ويقول "ابن أبى أصيبعـة" إن القاضى أبو مروان الإشبيلى "رأى قبـر ابن باجة قريبًا من قبر "أبو بكر العربى" الفقيه صاحب التصانيف ولما مات ابن الصائغ وقف على قبـره تلميذه (أبو بـكر بن الحارة) كمـا يذكر ابن سعـيد"[١١٠] وأنشد الشعر:

يا صـاحـب القـبر القـــريب ودونه هـم تبيـت له الكـواكـب تسـهـر

قم إن أطقت وهات عن صدر الردى خبـرًا فقد عـانيـت كيـف تصـور

وأخـــبر عن الملكـوت كيف رأيـته القـــريب عن الغـــرايـــب يخـبر

٩ - خصومه:

كانت ثقـافة ابن باجة وكـان علمه خليـقًا بأن يضعـه موضوع الإكـبار والتقديـر بين أهل عصره، ولقد وجـد ابن باجة من أمراء عصـره كل احترام وتقدير، وربما كانت تلك المكانة والمنزلة التى خلعها عليه الأمراء سببًا فى كثرة حساده وأعدائه.

وكان أشدهم عـداوة له وكراهية هو الفتح بن خـاقان المؤرخ المعروف، والطبيب ابن زهر.

أما سبب عداء ابن خاقان له فإن "القفطى"[١١١] يذكر لنا أنه قد أرسل إلى ابن الصائغ يطلب شيئًا من شعره ليورده له فى كتابه، فغالطه ابن الصائغ مغالطة أحنقته فذكره ذكرًا قبيحًا وقال عنه فى كتابه "قلائد العقيان"[١١٢] رمد جفن الدين وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفًا وجنونًا وهجر مفروضًا ومتونًا فما يتشرع ولا يأخذ غير الأباطيل.. إلخ.

أما "ابن الخطيب"[١١٣] فيذكر لنا سببًا آخر لذلك العداء، وهو أن ابن الصائغ كذبه مرة وهو يجلس فى مجلس أقرانه وجعل يعدد ويكثر ما وصله من أمراء الأندلس ويصف الحلى التى يمتلكها وكانت تبدو من أنفه دائمًا فضلة خضراء اللون فنظر إليه ابن باجة قائلاً له: فمن تلك الجواهر هذه الزمردة التى على شاربك، فهجاه ابن خاقان هجاء شديدًا فى كتابه ورماه بالإلحاد والزندقة والكيد لولى نعمته "الأمير أبو بكر الصحراوى" مما أدى إلى سقوط سرقسطة فى أيدى الأعداء.

والواقع أن الفتح بن خاقان كما يقول ابن الخطيب كان سيئ الأخلاق وقد اشتهر بذم أولى الأحساب والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب ويعقب "المقرى"[١١٤] على تناقض أقواله ويقول "وأين ذلك من تحليته له فى بعض كتبه بقوله" نور فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع، تتوجب بعصره الأعصار وتأرجت من طيب ذكره الأمصار.. إلخ.

ولكن عدالة السماء لم تتركه وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس (ابن الصائغ) فوجد فى فندق بمراكش ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً ولم يشعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله.

كذلك كان من أعدائه الطبيب ابن زهر، وكان سبب عدائه اختلافه معه فى بعض الأمور الطبية كما يذكر ذلك فوضع له السم كى يتخلص منه[١١٥].

وهكذا نجد أن حياته على قصرها أنما كـانت مثالاً لحياة الفيلسوف الذى بلى بمحن كثيرة وإساءات من العوام وقصـدوا هلاكه مرات ومرات فأصابه ما أصاب غـيره من فلاسفـة ذلك العصر ودبرت له المكائد والدسـائس وكان لا يبيت إلا وهو فى خطر علـى حياته ولا شك أن شخـصيتـه وفكره قد تأثرت بمثل تلك الأمور حيث يقول معاصره ابن طفيل" . . غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته" .

١٠ - ثقافته: منابعها وأصولها:

كان ابن باجة شغوفًا بالعلم، واسع الإطلاع، مقبلاً على العلوم والفنون بشتى أنواعها فقـد كان فيلسوفًا وعالمًا من علماء الطبيـعة والفلك والرياضيات والطب والموسيقا(١١٦) وهو أول مفكر أندلسى استطاع أن يسـتوعب الكتابات الفلسفيـة التى ظهرت فى الشرق العربى والتى انتـشرت فى أسبانيـا منذ عهد "الحكم الثانى ٩٦١ - ٩٧٦" كما أنه أول من أذاع العلوم الفلسـفية اليونانية وكان له الفـضل فى معـرفة الأندلسيـين بأفلاطون وأرسطو والتـراث اليونانى عامة. يقـول ابن طفيل(١١٧) لا تظنن أن الفلسفـة التى وصلت الينا فى كتب أرسطوطاليس وأبى نصـر وفى كتاب الشـفاء تفى بهـذا الغرض الذى أرادته، ولا أن أحدًا مـن أهل الأندلس كتب شـيئًـا فيـه الكفاية. وذلك أن من نـشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة قـبل شيوع علم المنطق والفلسفة فـيها قطعوا أعمارهـم بعلوم التعاليم. ثم خلف من بعـدهم خلف زادوا عليهم بشىء من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقـيقة الكمال ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحدق مـنهم نظرًا وأقرب إلى الحقيـقة، ولم يكن منهم أثقب ذهنا ولا أصح نظرًا ولا أصدق رؤية من أبى بكر بن الصائغ" .

وكان على ما روى "ابن أبى أصيبعة" متميزًا فى العربية والأدب حافظًا للقرآن. متـقنا لصناعة الموسيقى، جـيد اللعب بالعود وكان علـى ما قاله ابن

خاقان شـاعرًا مشهـورًا "اقتنى قينات ولقنهن الأعـاريض من القريض وركب عليها ألحانًا أشجى من النوح فسلك بذلك أبدع مسلك".

كان ابن باجة إذن من الصـفوة المثقفة ثقافة واسـعة بحيث تنوعت أنواع معارفه وتعددت تبعًا لذلك مصنفاته بتعدد نواحيه العلمية والأدبية.

أما منابع هذه الثقافة الواسعة فإننا نرجعها إلى الأصول الآتية:

أ - الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة:

كان القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ همـا الأساس الذى استند عليه ابن باجة فى أول دراسته. وهو وإن اشـتغل بالفلسفة إلا أن ذلك لم يزده إلا إصرارًا على التمـسك بدين الله وسنة رسوله وكان كثيـرًا ما يستخدمـهما فى تدعيم أفكاره الفلسفية رغم نزعته العقلية الصريحة(١١٨).

ولا شك أن هذا يناقض دعـوى البـعض الذين رمـوه بالكفر والإلحـاد والزندقة وكانت له بعض الأقوال والحكم الـتى تدل على التقوى والورع منها "حسن عملك تفز بخير من الله سبحانه"(١١٩).

كذلك كان من أشعاره مـا يدل على شدة تمسكه بدينه الحنيف وسنة نبيه محمد ﷺ:

حان الرحـيل فودع الـدار التى ... ما كان سـاكـنها بمخـلـد

وأضرع إلى الملك الجواد وقل له ... عبد بباب الجود أصبح ينحـنى

لم يرضـى إلا بالله معـبودًا ولا ... دينا سـوى دين النبـى محمدًا

ب - التراث اليونانى:

تعـمق ابن باجـة فى التراث اليـونانى وخـاصـة الفكر الأرسطى وتأثره بالفلسفة الأفلاطونية والأرسطية واضح فى كـتبه ومصنفاته، ومع أنه يشير فى

مؤلفاته إلى الفلاسفة الطبيعيين قبل "أرسطو" و"أفلاطون" كديموقريطس. وأبقراط إلا أنه لم يتأثر بهما بعد، وإنما كانت آراؤهما هدفًا لنقده، فعرضها من خلال منظور نقدى، أما تراث أفلاطون وأرسطو فهو يشير إليه أحيانا استشهادًا وأحيانًا آخرى اقتباسًا ومن ثم فمؤلفاتهم تعد الأساس الذى بنى عليه فلسفته فيما بعد.

وهو يشير فى مؤلفاته إلى محاورات أفلاطون خاصة (فيدون) وإلى كتاب (الجمهورية) كما يشير إلى مؤلفات أرسطو (ما بعد الطبيعة، السماع الطبيعى، الحس، والمحسوس، النفس، الأخلاق، الحيوان، النبات).

ولا شك أن الإطلاع على هذا التراث العظيم من الفكر اليونانى إنما يؤكد ما ذكرناه سابقًا من أن ابن باجة كان مفكرًا له خطره فى تاريخ الحياة الفكرية وواضح أنه لم يقم قبلئذ فى الأندلس فيلسوف ألم بهذا التراث الهائل إلمام ابن باجة، وأنه لم يجاريه فى هذا المضمار سوى ابن رشد بعد ذلك بنحو نصف قرن(١٢٠).

جـ - تراث فلاسفة المشرق:

ولم يقف ابن باجة على التراث اليونانى فحسب ولكنه أطلع على أكثر كتب المشارقة وخاصة "الفارابى" الذى يذكره فى ثنايا مؤلفاته مستشهدًا بآرائه الفلسفية، ويحدد بالذات مؤلفات الفارابى السياسية والخلقية فيذكر له (رسالة العقل، رسالة فى معانى الواحد أو الوحدة، السياسة المدنية، المدينة الفاضلة، فصول المدنى)(١٢١).

وكان لكتب الفارابى خاصة أثرًا فى أن بنى ابن الصائغ فلسفته السياسية والخلقية عليها كما سنبين ذلك فى الباب الرابع.

كذلك يذكر ابن الصائغ فى رسائله المفكر الصوفى "أبو حامد الغزالى" ويذكر خاصة كتابه "المنقذ من الضلال" وكان ابن الصائغ قد عارضه فى

سلوكه المنهج البـاطن من أجل الوصول إلى الحقائق الأولى. وعـرض منهجه الذى يعتمد على النظر العقلى.

ومع أننا نجد أثر الفيلسوف المشـرقى "ابن سينا" واضحًا فى رسائل ابن باجة إلا أنه لم يذكره أطلاقًا ولم يشر إلى أى من كتبه، وربما كان مرجع ذلك أنه اعتبر الفارابى "المعلم الثانى" أصلاً ومن عداه فرعًا.

استـوعب ابن الصائغ إذن هذا الخـضم الهائل من التـراث الفكرى ولا شك أن هذا الاستيعاب بدا واضـحًا فيما تركه لنا من مصنفات مـتعددة بتعدد ألوان العلوم والمعارف وإن كانت هذه المصنفات قد اتسـمت بالسمة الإسلامية على نحو ما تمثلها ابن الصائغ فكان مذهـبه الفلسفى القائم على أسس عقلية يشير إلى نبوغه وعبقريتـه. مما ينفى دعوة البعض "كابن سبعين"(١٢٢) الذى وصف ابن الصائغ بأنه تابع أرسطو متابعة عمياء.

ولا شك أن شغف ابن باجة بالعلم وسعة اطلاعه مهدًا له السبيل للنبوغ فى العلوم والفنون على اختلافها.

فدرس الطب وكان طبيـبًا نطاسيًا يخدم الأمراء بصناعـته وذاعت شهرته كطبيب فى الأندلس والمغـرب يقول ابن أبى أصيبعـة "ويعد من الأفاضل فى صناعـة الطب" وكانـت له بعض المؤلفات الـطبيـة، واشتـرك مع "سـفيـان الأندلسى" فى تأليف كـتـاب التجـارب وقد اسـتـدركا فـيه على ابن وافـد الطليطلى ما فاته فى كتابه عن الأدوية المفردة.

ويذكر "ابن أبى أصيبعة" أنه كـان بينه وبين الطبيب "أبو جعفر يوسف بن حسداى صـداقة وكان أبدًا يراسله من القاهرة ويستشـيره فى بعض الأمور الطبية(١٢٣).

أما فى الرياضيات والهندسة فقد وضع عدة مؤلفات توصل فيها إلى استخراج عدد من البراهين الهندسية. يقول ابن الصائغ[١٢٤] فى مضمون رسالة بعث بها إلى تلميذه "ابن الإمام" . . . وكنت قد قلت أنه بلغك أن عبد الرحمن بن سيد كان قد استخرج براهين فى نوع هندسى لم يشعر به أحد قبله مما بلغنا ذكره، وأنه لم يثبتها فى كتاب وإنما لقنها عنه اثنان أحدهما أنا والآخر تلف فى حرب وقعت فى الأرض التى كنا فيها وبلغك مع ذلك أنى زدت عليه حين استخرجتها ويكون ذلك بالعزم على أن أكتب لك كتابًا يتضمنها وأن أضيف إليها مسائل قد كنت ذكرت لك أنى صنعت براهينها" .

كذلك كانت لابن الصائغ تعاليق فى علم الهيئة (الفلك) وهى تدل عى براعته فى هذا الفن حتى أنه كان يحسب الخسوف والكسوف قبل وقوعهما. ومما يؤثر عنه أن الموت عدا على صاحب له فقضى ليلة كاملة عند قبره، وكان يعلم لمعرفته بالفلك أن القمر سيخسف تلك الليلة فنظم بضعة أبيات وقبل أن يحين موعد استتار القمر بلحظات أنشدها بلحن محزن يفيض شجى[١٢٥].

ويعد ابن الصائغ أول من اقترح تبسيط نظام بطليموس ليتلاءم مع نظرية أرسطوطاليس وكان لآرائه وفرضياته فى محاربة نظام "بطليموس" تأثيرًا عميقًا على ابن طفيل فيما بعد، وهو يعد بحق باعث الاتجاه الجديد فى الفلك فى المغرب وكان أعظم الفلكيين فى القرن الثانى عشر الميلادى ويبدو أنه درس الفلك لاتصاله الوثيق بالعلوم الطبيعية وفلسفة العلوم فضلاً عن أن دراسة الفلك كانت هى سمة العصر. وكانت له مناقشات فلكية حول نظام بطليموس الفلكى مع "جابر بن الأفلح"[١٢٦].

أما فى الموسيقا والألحان فقد كان ابن باجة ملحنًا بارعًا ووشاحًا مشهورًا جيد اللعب على العود. قال عنه ابن خلدون"[١٢٧] ومن الموشحين المطبوعين. . الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة" وقال

"الشفندى"[١٢٨] فى رسالته المحفوظة فى "نفح الطيب" "وهل لكم فى علم اللحون والفلسفة كابن باجة".

ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفوليت صاحب سرقسطة فالقى بعض موشحاته ومنها:

جـــرر الـذيـــل إيـــما جر وصل الشكر منـك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك لما ختمها بقوله:

عقـــــد الله رايـة النـصـر لأمـير العـــــلا أبى بـــكر

فلما طرق ذلك التلحـين سمع "ابن تيفـوليت" صاح "واطرباه" وشق ثيابه وقال: ما أحسن مـا بدأت وما ختمت، ثم حلف بالأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فـخاف الحكيم (ابن الصائغ) سوء العاقبة فاحتال بأن جعل فى نعله ذهبا ومشى عليه[١٢٩].

ولم يكن ابن الصائغ طبيبًا، ورياضيًا، وفلكيًا، وموسيقيًا فحسب. وإنما كان أيضًا عـارفًا للأنساب[١٣٠]. كما كـان شاعرًا وأديبًا له من نظـم الشعر ملكه ممتازة وذوق مصقول[١٣١] ومن خلال ما أورده كل من "المقرى" و"ابن خلكان" و"ابن خاقان"، و"الصفدى" من قصائد شعرية تتضح لنا خصائصه الشعرية التى انتشرت فى مختلف ألوان الشعر من مدح وغزل ورثاء، وحكمة وهجاء... إلخ.

ومع حقد ابن خـاقان له، إلا أنه مع ذلك يسلم بأن له شعرًا أجـاد فيه بعض إجادة ومنه قوله[١٣٢]:

أية يا برقة قل حديثك عن نجـ ـد فحـــيا الإله عنـــى نجـــدًا

قـــل وإن كـان ما تحـدثه زو را فقـد تـبرد الأحـاديث وجدًا

وكان شعر ابن الصائغ "الغـزلى" ينطوى على رقة الحس ورشاقة اللفظ حيث إنه يصور شوقه وحنينه وفى هذه الابيات نجـده يصور حاله عندما فارقه أحبته فيقول(١٣٣):

هم رحلـوا يوم الخـمـيـس غـدية فـودعـتـهم لما اسـتـقلوا وودعـوا
ولما تـولوا ولـت الـنفـس إثرهـم فقلت ارجـعى قالت: إلى أين أرجع؟
إلى جـسـد مـا فـيـه لحم ولا دم ولا هو إلا أعظـم تتـقـعـقـع
وعـينين قد أعـمـاهمـا كثـرة البكا وإذن عصـفـت نداها ليس مستمع

على أن ابن باجة الذى يبيدو هنا شاعـرًا يقطر شعره أسى ولوعة، كان أيضًا حكيمًـا وله أشعار فى الحكمة لا تقل روعة عن أشعـاره الأخرى. فهو يصور مـا يصادف الإنسان فى الحـياة من أحداث ومـا يعرض له من خطوب نجده يقول وهو فى محنة الاعتقـال وكان يخطاب ذا الوزارتين (أبا جعفر يزيد بن مجاهد) يقول(١٣٤):

لعـلك يا يـزيد علـمت حـالى فـتـعـلم أى خطب قـد لقـيت
وإنى إن بـقـيت بمثـل مـا بى فـمن عـجب الليـالى أن بـقـيت
يقـول الشـامـتـون شـقـاء بخت لعـمـر الشـامـتين لقـد شـقـيت
أعنـدهم الامـان من اللـيـالى وسـالمهـم بهـا الزمن المـقـيت
ومـا يدرون أنهم سـيـسـقـوا على كـره بكأس قـد سـقـيت

كذلك كانت له قصائد لونت بفلسفته مثل قوله(١٣٥):

يا باكيًـا فرقـة الأحبـاب عن شحظ هلا بكـيت فـراق الروح للبـدن
نـور تـردد فـى طـيـن إلـى أجـل فـانحـاز علوًا وخلى الطـين للكفن

ياشد مـا افترقـا من بعد ما اعـتلقا اظنهـــا هدنة كـــانت عـلى دخن
أن لم يكن فى رضا الله اجتماعهما فـيـالهـا صـفـقـة تمت على غـين

وكانت له قصيدة فى الصيد (طريدة) ولكنها لم تنشر وربما تكون فقدت كبعض رسائله(١٣٦).

وهكذا يتضـح لنا كيف تجلت عبـقرية ابن الصـائغ فى الإلمام بكل هذا التراث، وكيف استـوعب ثقافات عصره استيعـابًا يدل على مقدرة وذكاء فى فهم جميع المذاهب والآراء الفلسفية، ولم يقف عند حد الاستيعاب ولكنه نقد بأسلوب مقنع ما وجده مخالفًا له، ولم يكن نقـده يدل على عصبية أو تحيز، ولكنه كان نقدًا موضوعيًا موضحًا أسبابه وغايته. وقد ظهر ذلك واضحًا فيما تركه من آثار فكرية اشتملت على آرائه الفلسفية فى شتى فروعها. وما كان له من تأثير على من جاء بعده من فلاسـفة الأندلس. "مما سنوضحه فى الفصل الخاص بمصنفاته" وبحق يمكن القول بأن اسمـه ومكانته العلمية ظلت تفرض نفسـها على الأوسـاط الفكرية فترة طـويلة من الزمن، حتى أننا لم نر نجـمًا فلسفيًا يظهر فى بيئة الأندلس بعد ابن باجة سوى ابن رشد ولم يكن ذلك إلا بعده بنحو نـصف قرن من الزمان(١٣٧). فإذا أضفنا إلى ذلـك الجانب العربى من ثقافته الفلسفية تجلت لنا أهميته التاريخية كصلة الوصل بين الفكر الفلسفى فى الشرق وفى الأندلس.

١١ - تلاميذه:

مثلمـا أخذ ابن باجة ثقـافته وعلمه مـن أساتذة وشيوخ عـصره، ومن خلال العـديد ن المؤلفات والترجمـات التى كانت منتشرة فى بيـئة الأندلس، أعطى لمن جاء بعده أو عـاصره ثمرات عقله ونتاج فكره. فنتـاج الفكر يتمثل فى مصنفات تبقى على مـر الزمن وتلاميذ ينتسبون إلى المفكر قليـلاً أو كثيرًا

حسبما يكون تـأثيره فيهم ولقد كان عطاؤه سخيًا اغـترف منه العام والخاص، وعرف فـضله ذوو العلم والمعرفـة ممن جاءوا بعـده، إذ أنه لم ينعم بالتـقدير والإكبار من ذوى عـصره كما ذكرنـا سابقًا ولكن فكره ونتاجه الـفلسفى كان لهما الأثر كل الأثر فى إبراز شخصيتـه وإظهار مكانته بحيث أصبح فى عداد فلاسفة المغرب البارزين فيما يتعلق بالتراث الفلسفى.

ولقد تمثل عطاءه فى مؤلفاته ورسائله العديدة، وفى الندوات التى كانت تعقد فى بلاطات الأمراء والتى كـان يجتمع فيها الجمع وتدور فيـها المناقشات فى شتى الأمور ومختلف ألوان المعرفة.

ثم تمثل هذا العطاء من ناحـية أخـرى فى تلاميـذه الذين تأثروا بأفكاره وآرائه سواء منهم من عاصـره وتلقوا منه واستفادوا مبـاشرة، أم من جاء بعده فتتلمذ على كتبه واستمد من تراثه.

ومن تلاميذه الذين تتلمذوا عليه مباشـرة وعاصروه وسمعوا منه تلميذه "أبو الحسن على بن عبـد العزيز بن الإمام" وهو الذى قدم لمجمـوعة رسائل ابن باجة.

وكان أبو الحـسن هذا كما قـال "ابن أبى أصيبـعة"(١٣٨) كاتبًـا فاضلاً متميزًا فى العلوم صحـب ابن باجة زمنًا وتتلمذ له "ولقد بلغ من صدق المودة بينهما أن أهدى إليه ابن الصائغ عددًا من الرسائل الفلسفية فذكر منها "رسالة الوداع"، و"ورسـالة الاتصـال"، و"كـلامه فـى الألحان"، و"كـلامـه فى النيلوفر".

وكان ابن الصائغ يثق فى مقدرته الفلسفية وبراعته الأدبية فكان يستشيره فى بعض الأمور الفلسفية كلما أحتاج إلى ذلك كما كان يطلب منه فى بعض الأحيـان ترتيب عباراته الفلسـفية أو توضـيحهـا فنراه يقول(١٣٩). "وكذلك

وجدت ترتيب العبـارة فى بعض مواضع على غير الطريـق الأكمل ولم يتسع الوقت لتبـديلها، واعتـمدت عليك فى ذلك فقـد شهدت منك هذا. . فغـير ترتيب العـبارة إلى الترتيب الأفـصح ونب عنى فى ذلك المناب الذى عـهدته منك إن شاء الله".

وعلى الرغم من أن ابن باجة كان مـعاصرًا للفيلسوفـين الكبيرين "ابن طفـيل ٥٠٠ - ٥٨١هـ" وابن رشـد ٥٢٠ - ٥٩٥" لكن يبـدو" أنه لم يلقاهما.

ففيما يتعلق "بابن طفيل" نجد بعض التراجم(١٤٠) قد ذكرت أنه تتلمذ تلمذة مباشرة عليه وأن ابن طفيل قرأ العلم على جماعة من أهل الحكمة منهم أبو بكر بن الصائغ ولكن ابن طفـيل ينكر معرفة ابن باجة إلا من خلال كـتبه وقد صرح بأنه "لم يلق شخصه" ويبدوا أنه قـرأ مصنافات ابن الصائغ فبهرته براعته فى صيـاغة الأفكار الفلسفية ومما يؤكد ذلك مـدحه له فى رسالته "حى بن يقظان"(١٤١) وثناؤه عليـه من حيث إنه فـاق أهل عصـره من أهل النظر وأسف عليه لأن مشاغل الدنيا ووفاته قبل الأوان عاقتاه عن فتح كنوز علمه.

فإذا ما انتقلنا إلى معاصره الثانى "ابن رشد" نجد ابن أبى أصيبعة(١٤٢) يؤكد تلمذته لابن الصائغ فيقول". . . وكـان من جملة تلاميذ ابن باجة أيضًا القاضى أبو الوليد مـحمد بن رشد "إلا أن هذا يبعد احتـماله للصدق، ذلك أن ابن باجة توفى ٥٣٣هـ ولكن ربما كان مقصـد "ابن أبى أصيبعة" أنه تتلمذ على فلسفتـه فيما بعد وهذا هو الرأى الأرجح خاصـة وأن ابن رشد قد كتب جوامـعه "أى جوامع كتب أرسطواليس" بعـد مجموعـة ابن باجة(١٤٣) التى جمعها ابن الإمام وقدمها تحت عنوان "مجموعة من كلام الشيخ الإمام الوزير أبى بكر محمد بن باجة".

ولعل الذى دفع ابن أبى أصيبعة إلى هذا القول أن ابن رشد كثيراً ما يشير فى كتبه إلى ابن باجة إشارات مصحوبة بالتقدير والاحترام حتى أنه يطلق عليه كما يقول المؤرخون (والد الفلسفة فى الأندلس). وربما يكون تردد ابن باجة كثيراً على بيت ابن رشد زائراً مما جعل المؤرخين يتوقعون استفادة الثانى من الأول مع ما قد يكون بينهما من محادثات، وما وجدوه من أوجه الشبه بين مذهبيهما مما قد يدل على أن مذهب الثانى تسلسل من مذهب الأول أو على الأقل تأثر به(١٤٤).

ومن جملة تلاميذه أيضًا يذكر لنا "ابن سعيد"(١٤٥) أن له تلميذًا يدعى "أبو عامر محمد بن الحمارة الغرناطى" ويبدو أنه هو الذى وقف على قبر ابن الصائغ ورثاه بالشعر كما يقول "الصفدى"(١٤٦) كما يذكر أيضًا(١٤٧) أن "أبو الحسن على بن جودى" من ولد سعيد بن جودى وهم من ملوك غرناطة قد قرأ على أبى بكر بن باجة فاشتهر بذلك.

***

اتضح لنا فيما سبق صورة لحياة ابن الصائغ كيف بدأت وكيف أنتهت وكيف كان لظروف بيئته الخاصة والعامتة أثر فى تكوين شخصيته العلمية وثراء فكره الفلسفى فقد تهيأت له معارف كثيرة معتمدة من مصادر عدة منها ما هو إسلامى ومنها ما ليس بإسلامى.

وبذلك كانت ثقافته ثقافة شاملة ذات مكونات متعددة تدل على ما امتاز به صاحبها من قدرة على الاستيعاب وذكاء خارق فى فهم جميع المذاهب والآراء الفلسفية وبراعة فائقة فى استخدامها فى بناء مذهبه الفلسفى كما تشير إلى ذلك مصنفاته المختلفة ذات الأغراض المتعددة وهو ما سنحاول أن نلقى عليه الضوء فى الفصل الثانى والذى يحمل عنوان "مؤلفاته وشروحه".